

أبو القاسم سعد الله: الإنسان و الباحث من خلال الشهادات

Abu al-Qasim Saadallah: The human and the researcher through testimonies

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة مولاي الطاهر- سعيدة - الجزائر	تاريخ حديث ومعاصر	أستاذ مساعد أ. جبران لعرج MAA. Djebrane Laaradj oustadjebane@outlook.fr
DOI:		

ملخص

يعتبر الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله واحد من الرجال الذين اتخذوا من القلم سيفاً يصارعون به أعداء الأمة ويدافعون به عن تاريخها، فكان هذا نجما يقتدى به في الدراسات التاريخية وبخاصة في تاريخ الجزائر الثقافي. سنحاول في هذه الدراسة إبراز الصفات الإنسانية التي كان يتحلى بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله، والتي جعلت منه ذلك الأستاذ المتواضع حتى مع أضعف الخلق وأقلهم ثقافة وعلما. ونتوقف كذلك عند محطات تاريخية من حياته العلمية باعتباره أستاذا، باحثا ومؤرخا من خلال بعض الشهادات المكتوبة في جريدتي البصائر الإلكترونية والشروق أون لاين.

الكلمات المفتاحية: أبو القاسم سعد الله؛ الإنسان- الباحث؛ جريدة البصائر؛ جريدة الشروق

Abstract

Professor Abu al-Qasim Saadallah is one of the men who took the pen like a sword defending the history of their homeland.

In this study, we will try to highlight the human qualities that Professor Abu al-Qasim Saadallah possessed and which made him this humble teacher. We also stop at the historical milestones of his scientific life as a professor, researcher and historian through some of the testimonies written in two electronic journals: el bassair and echoroukonline.

Keywords : Abu al-Qasim Saadallah ; l'homme ; chercheur ; El bassair ; Echoroukonline.

مقدمة

لكل أمة تاريخ، ولكل عصر رجاله ونساءه. والجزائر هذا البلد الشاسع جغرافيا والمتنوع بثقافته قد قيد له الله عز وجل رجالا ونساء حملوا لواء الدود عن حماه والدفاع عنه بكل قوة وعزم وبكل أنواع الأسلحة المادية والمعنوية. صنف من هؤلاء وهب نفسه فداءً للوطن فسقط منهم الكثير شهداء في ميدان الشرف ومعارك التحرير، مقدمين بذلك دماءهم عربونا للاستقلال، وصنف آخر أبروا أقلامهم مدافعين عن معتقداتهم وأفكارهم وتاريخ وطنهم.

يعتبر الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله واحد من هؤلاء الرجال الذين اتخذوا من القلم سيفاً يصارعون به أعداء الأمة ويدافعون به عن تاريخها، فكان بهذا نجما يقتدى به في الدراسات التاريخية وبخاصة في تاريخ الجزائر الثقافي.

سنحاول في هذه الدراسة إبراز الصفات الإنسانية التي كان يتحلى بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله، والتي جعلت منه ذلك الأستاذ المتواضع حتى مع أضعف الخلق وأقلهم ثقافة وعلما. ونتوقف كذلك عند محطات تاريخية من حياته العلمية باعتباره أستاذا، باحثا ومؤرخا من خلال الشهادات المكتوبة في جريدتي البصائر (1) والشروق أون لاين (2). وعليه فقد قسمنا دراستنا إلى ثلاثة عناصر، عرفنا في العنصر الأول بالأستاذ سعد الله، وعرجنا في العنصر الثاني على ملامح إنسانية الأستاذ طيلة حياته العلمية، ثم تطرقنا في العنصر الأخير إلى مميزات الأستاذ العلمية كباحث متميز وعلم من أعلام الجزائر المعاصرة.

1/ التعريف بأبي القاسم سعد الله:

ولد بلقاسم بثلاثة نقاط على حرف القاف (أبو القاسم) سعد الله، كما يقول عن نفسه، بقرية البدوع (3) المجاورة لمدينة قمار بوادي سوف، وهو أول إخوته لأمه. وكان مولده في صيف حار وهي الخصائص الطبيعية للقرية و الجنوب الجزائري عموما، حوالي سنة 1930 أو 1931. ولم يعرف أبو القاسم تاريخ مولده بالضبط على عادة الناس آنذاك، حيث لم يتم تسجيل الأبناء في سجلات الحالة المدنية (الأسلوب الجديد الذي أدخلته الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر سنة 1882 م و وصل تدريجيا باتجاه الجنوب الجزائري حتى عم كل الجزائر مع الحرب العالمية الأولى). أما الإدارة الفرنسية فقد سجلت مولده بتاريخ 1927. (4)

عاش أبو القاسم سعد الله حياة الصحراء بما فيها من قساوة العيش، و نقاء النفس، و حسن الخلق، و رحابة الصدر. و كانت أسرته التي ينتهي إليها من الأب أحمد و الأم لعبيدية هالي معروفة عند أهل المنطقة باسم أولاد علي بن مسعودة المنحدرة من عرشين كبيرين بالمنطقة، و هما عرش أولاد عبد القادر من جهة الأب، و عرش أولاد بو عافية من جهة الأم. و أسرة سعد الله هذه كانت من بين الأسر التي ابتدعت البدوع أي غراسة الأرض بالنخيل حيث عذوبة الماء و قربه من سطح الأرض. و قد عاش الأب أحمد و أبناؤه الفقر الشديد تحت السياسة الاستعمارية و ثلاثها الأسود الجهل، و الفقر، و المرض مثل كافة الشعب الجزائري آنذاك. و قد قال الشيخ أبو القاسم عن نفسه التي تكلم عنها بضمير الغائب مقتا للأناوية: "كان عند خروجه إلى الدنيا (يقصد أبا القاسم نفسه) و طاؤه الأرض و غطاؤه السماء." كما قال أيضا: "و كان أهله من أوائل الفلاحين الذين ابتدعوا البدوع فعمروها بغراسة النخيل لعذوبة مائها. و لكنهم يذكرون أيضا أنهم عند ميلاده (أبو القاسم) كانوا لا يفترشون سوى الرمال و لا تظلمهم غير سقائف من جريد النخل." (5)

دخل بلقاسم الجامع القبلي بالبدوع في سن الخامسة من عمره أي حوالي 1936. و كان الأب أحمد و عائلته و مقربوه ينتمون إلى الحركة الإصلاحية و متأثرين بها. حفظ بلقاسم القرآن الكريم و أقام له والده تكريمان: الأول معنوي و هو ذبح كبشين و جمع الناس في حفل بهيج، تسامر فيه الناس على القرآن و الأخلاق و ترديد القصائد و المدائح الدينية. أما التكريم الثاني فكان ماديا يمثل في شراء لباس جديد و هو أول قميص يلبسه بلقاسم. (6)

حفظ بلقاسم إذا القرآن الكريم حوالي سنة 1944، و لو بدون أحكام كما وصف ذلك مرة، و ذلك على عهد شيخه المعلم: أبو القاسم بن البرية. و كرر حفظه ثلاث مرات ترسيخا له و تقليدا للسابقين. و صلى بالناس التراويح سنتين متتاليتين 1944 / 1946. و كان التأخر في الحفظ بسبب عدم استقرار المعلمين بمنطقة البدوع إلى أن استقر بها المعلمان ابن البرية و الشيخ الزبيري مع سنة 1941 أو 1942. ثم حاول الالتحاق بتونس خلال سنة 1946 لكن قلة المادة منعتة من ذلك، فأجل الأمر إلى فرصة أخرى. و بدأ في استكمال حفظ المتون سنة أخرى، حتى تمكن من الالتحاق بالزيتونة، تأثرا بالحركة الإصلاحية عموما، و بأسرته خصوصا. حيث كان ذاك هو طموح والديه خصوصا

الأم. حيث قال أبو القاسم سعد الله: "أنا مدين لمرأتين في حياتي: أمي وزوجتي. وقفت والدي ورائي في حفظ القرآن الكريم في جامع البدوع بقمار، ثم الدراسة في جامع الزيتونة بتونس، أسوة بأخيها (خالي) لأكون مثله عالما محترما، معتقدة أن الله قد فتح عليهما (القدري) ليلة القدر و أنا طفل، فلم تطلب من الله شيئا غير العلم الشريف، وهي التي رسخت في هذه الفكرة. حت عشت بها كل حياتي معتقدا في قرارة نفسي أنني رجل قدرتي، وأن الله قد اختارني لمهمة وهي خدمة العلم الشريف (الدراسة و البحث). و أنني لم أخلق لغير هذه المهمة. ثم كانت شريكة حياتي أم محمد فقد فهمت طبيعتي وطموحي وحدود حركاتي فساعدتني بما تعرف و ما تملك، أولا بتوفير شروط العمل رغم صعوبات المحيط الذي عشنا فيه. وثانيا بإعانتني بشتى الوسائل و إبداء الرأي أحيانا فيما اكتب، فهي صاحبة رأي حصيف وثقافة واسعة. وكان تفرغي لأبحاثي و كثرة أسفاري يحرماتها دائما من بعض حقوقها، و مع ذلك كانت تقبل ذلك بكل رضى و طيب خاطر، و تشجعني على مواجهة الصعاب في سبيل هدي النبيل." (7) إلى جانب هاتين المرأتين الصالحتين كان لأبيه الفضل الكبير ولخاله الحفناوي هالي و كذلك للشيخ محمد الطاهر التليلي زوج خالته أيضا. و لاشك أن الملاحظة البارزة أن والديه قد نذراه للعلم فلم يجبرانه على مواصلة دراسته كما فعلا مع إخوته.

في ظل كل هذه الظروف عاش الأستاذ سعد الله حياته الشخصية و العلمية، و كان حلمه الذي رسمه لنفسه في الحياة، و تطلع لأن يحقق أمله و أمل والدته في أن يصبح عالما متمرسا، و شيخا مجددا.
من أم محطات حياته ما يلي:

- مواصلة الدراسة بتونس ما بين 1947 و 1954 أين تحصل على شهادة التحصيل أو الأهلية حيث احتل المركز الثاني في دفعته المتخرجة. (8)
- مباشرة التعليم بالجزائر ما بين 1954/1955 في كل من مدرسة الثبات بالحراش و مدرسة التهذيب.
- استكمال الدراسة بالقاهرة التي دخلها عام 1955 ليتحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي و العلوم الإسلامية في جويلية 1959. ثم سجل بعدها في قسم الدراسات

العليا الماجستير تخصص أدب عربي أكمل خلالها أطروحته حول شعر الشيخ محمد العيد آل خليفة إلا أنه لم يناقشها بسبب اهتمامه بالتوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

• حصوله على منحة جبهة التحرير الوطني لمواصلة الدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية التي دخلها في 30 نوفمبر 1960 حيث سجل بجامعة مينيسوتا بقسم التاريخ و العلوم السياسية أين تحصل على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر سنة 1962. ثم تحصل على شهادة الدكتوراه دولة في 20 سبتمبر 1965 حول أطروحة الحركة الوطنية الجزائرية، تحت إشراف البروفيسور هارولد دويتش.

• تدريس الأستاذ بجامعة ويسكنس بأوكليفر خلال 1965/1967. (9)

• عاد إلى الجزائر سنة 1967 ليلتحق بجامعة الجزائر كأستاذ، وبدأ نشاطه من أجل التدريس و المساهمة في رفع مستوى التعليم و التكوين في وطنه. كما شرع في تأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية رفقة طلبته و زملائه. و بقي على هذا المنوال بين التدريس و التأليف إلى إن وافته المنية بتاريخ 11 صفر 1435 هـ/ 14 ديسمبر 2013 (10) أين دفن في مكان مولده.

من آثاره العلمية :

ترك الأستاذ سعد الله آثارا متعددة في مجالات مختلفة من العلم، فركب سفينة التاريخ و تعلق بحبال الأدب و الرحلات و عانق خبايا الترجمة و التحقيق، فأنتج بذلك الكثير من المؤلفات كتابة و تحقيقا منها:

- تاريخ الجزائر الثقافي في 10 مجلدات.
- أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر في 5 أجزاء.
- الحركة الوطنية الجزائرية في 4 أجزاء.
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث.
- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي.
- تجارب في الأدب و الرحلة.
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث. (11)
- مسار قلم في 6 أجزاء.
- حكاية العشاق في الحب و الاشتياق.

- شعوب وقوميات. (12)
- الزمن الأخضر، ديوان سعد الله.
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث. (13)

2/ أبو القاسم سعد الله الإنسان:

ارتكز الأستاذ سعد الله طيلة حياته على مبادئ التربية التي استمدتها من القرآن الكريم و من محيطه الاجتماعي الذي عاش فيه، ما حاد و لا زاغ عنها يوما و لا تلكأ في تبليغها و إيصالها إلى الناس عامة و إلى طلبته خاصة. و في هذا يقول عنه الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم (رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاليا)، و هو يستحضر خصال الرجل و مناقبه : " التعفف و الزهد فيما في أيدي الناس، حكّاما أو محكومين، فليس كالعفة في الدنيا فضيلة، تعلي من قامة المثقف و ترفع قيمته و تمنحه المهابة فيما يقدم للناس من دروس أو نظريات." (14) نعم لقد عاش الأستاذ متواضعا و لم يطلب لنفسه يوما منصبا أو كرسيا أو جاها، بل أكثر من ذلك فقد رفض كل المغريات الدنيوية و تعفف عن ما يوجد بين أيدي الناس. و هذا ما يؤكده الأستاذ أرزقي فراد حينما يذكر أن الخصال الحميدة للدكتور سعد الله جعلت من " سلطان العلم يتحرّر من سلطان السياسة، إذ صمد أمام إغراءات المناصب السامية، و لم يجعل علمه سلما للعالم... " (15) لأنه بإدراكه التاريخي تيقن أن أصحاب المناصب الأستاذ التهامي مجوري نفس الفكرة إذ يقول: " صحيح أن الرجل عرضت عليه مناصب في الدولة و رفضها لشعوره بخطورتها على مشروعه الوطني الكبير و هو الحفاظ على هوية الجزائر بجميع أبعادها المحلية و الإقليمية و الدولية..." (16) و قال عنه الأستاذ التهامي مجوري: " ... فعزيمة سعد الله الذي لا يسع مخالفه إلا أن يحترمه و يعدره طوعا أو كرها، لأن يألم لواقع الجزائر كما يألم الناس لواقع أسرهم و أهلهم، عزيمة تقهر كل ما جادت به مكائد الاستعمار و كوارث الطبيعة مهما كثرت. و من ثم فهو من القلائل الذين لم تنل منهم النكبات، و إنما زادتهم قوات إلى قوات إلى قواهم." (17)

و يقول عنه الأستاذ عبد الله عثمانية، عندما تحدث عن جنازة أبو القاسم سعد الله: " ... و هكذا قرر بعض الأصدقاء ممن تيسر الأمر، أن ينتقلوا هم أيضا إلى قمار لحضور جنازة هذا العظيم الذي رحل عن هذه الدنيا الفانية..." (18)

و يقول عنه الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني: " ... كما حافظ على أخلاقيات العالم ورسالة المؤرخ..." (19)

كما يؤكد الأستاذ سعيدوني أن الأستاذ سعد الله كان زاهدا في هذه الدنيا ومبتعدا عنها قدر المستطاع فيقول: " يلاحظ على الأستاذ زهده وابتعاده عن الأضواء وتواضعه العلمي، وقد يفسر هذا بتربيته الدينية وتجربته الشخصية ونظرته للحياة، لكن احترامه لنفسه و اعتزازه بمهيمته العلمية وإيمانه برسالته جعلته لا يتردد في إبداء آرائه و تسجيل مواقف و تحديد رؤيته لقضايا الساعة وهموم الجزائر والعالم الإسلامي." (20)

كما عرف الأستاذ بشخصيته المتميزة التي تؤثر في النفوس قبل العقول، و في هذا يصفه الأستاذ أبو محمد عبد الرحمان بقوله: " فصيحاً يمتلك القلوب بفصاحته، وأثر في نفوس كما يشاء ببلاغته، عذب الحديث، جميل المحضر، ذا شخصية إيجابية محترمة، وقورا وقار القوي الذي يحترم نفسه من غير تكبر ولا جفاء، يجمع التواضع والحلم، ومساعدة الغير وحبهم، والصدق والأمانة." (21)

كما عرف عنه الكثير من الخصال الحميدة والتي منها: العفة والصدق والبعد عن التكلف والتصنع، و في هذا يقول عنه الباحث في تاريخ الجزائر الثقافي الأستاذ لحسن بن علجية: " كان رحمة الله سليم الصدر عزيز النفس كامل الأدب، عفيف اللسان و القلم، يصدق قلبه لسانه و لسانه قلبه، بعيدا عن التكلف في أقواله وأفعاله، منزويا عن الشهرة، عرف برجاحة العقل والفهم الثاقب والرأي الصائب، والمروءة...شهد له الناس بحسن السيرة و صفاء السيرة." (22)

و من خصاله كذلك تواضعه الكبير فكان موقرا للصغير والكبير على حد السواء، و في هذا يصفه الأستاذ أرزقي فراد بقوله: " ... و من محامده التي سار ذكرها في البلاد، حبه للتواضع لإدراكه أن أفة العلم هي الغرور و الشعور بالكمال." (23) و ما يؤكد هذا التواضع اللامحدود هو ما وقع للأستاذ محمد الأمين بلغيث في إحدى المواقف التي جمعته بالأستاذ أبو القاسم سعد الله، إذ يذكر عن سعد الله الإنسان أنه في شهر

ديسمبر من سنة 2002 م و عندما قدم إلى المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 م، و هذا بغية تقديم نسخته النهائية من أطروحة الدكتوراه إلى "الأستاذ الدكتور عبد المجيد بوجلة ليحملها إلى تلمسان و من هناك إلى أستاذي الخلق الفاضل عبد الحميد حاجيات، و لما اقترب شيخ المؤرخين مني ليسلم علي في مكتب الكاتبات بالمركز الوطني للدراسات و البحث في تاريخ الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 م، سقط المجلد الأول فقال سعد الله رحمه الله، "فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقها." ثم قام الشيخ المتواضع برفع الجزء الذي سقط أرضا و طلب ورقا من الكاتبة، ثم ساعدني في لفة و تسليمه إلى الأستاذ بوجلة، فحمل المجلدين معه إلى تلمسان." (24)

كما عرف كذلك بالهدوء و الرصانة و هي من شيم الرجال الذين تربوا و رعرعوا في البوادي و الصحاري، و في هذا يذكر الأستاذ التهامي مجوري: "سعد الله رجل مسالم و هادئ و أليف الطبع..." (25)

و قد شهد للرجل حبه الكبير للفقراء و المساكين، فكان يستشعر ألامهم و معاناتهم، ما جعله يخلد هذه المعاناة في قصيدته "أنشودة المزارع و الحقول"، و التي يقول فيها:

طول النهار....
استنبت الأرض الخراب
و أغلب البؤس المميت
لا البرد يقعدني و لا الريح العصفوف
لا البؤس يرفق بي و لا المرض العضال
طول النهار... كالآلة الخرساء... أعمل مطلقا...
بدرهم و شتائم
لا غاية تدنو... و لا أملا طليق
دنيا من الحرمان و الدم و الشهيق

أنا هنا ...

نحن العبيد ...

عرقا و أعصابا و روحا

شبحا و إعصارا مبيد (26)

و يقول عنه طالبه الدكتور مولود عويمر عندما كان يدرس على يديه وحدة تاريخ الجزائر المعاصر: "فكان دائما يتعامل معنا كالأب العطوف و لا يتردد في الإجابة عن تساؤلاتنا العلمية." (27) كما يؤكد على أن الأستاذ كان بسيطا في تعامله مع الآخر على عادة أهل العلم و العلماء. و يصفه كذلك بأنه أي الدكتور سعد الله "كان معروفا بالصرامة و الجدية. كما كان مثالا راقيا في التواضع و العطف على الطلبة المتميزين و الرعاية للمجتهدين." (28)

و في نفس السياق فإن الأستاذة أمينة صاري تذكر أن منهجه في التعامل مع الطلبة كان على النحو الآتي: "كان رحمه الله متواضعا بكل معنى الكلمة، يتعامل مع الطلبة كأنهم أبنائه، يستمع لانشغالاتهم، و يهتم بأرائهم، يساعدهم و يوجههم كلما طلبوا ذلك، و هو في تعامله هذا لا يفرق بين الطالب الذي سبق و أن درّسه، أو الطالب الذي لم يره من قبل، بل يعاملهم على السواء." (29) و هكذا ينطبق على أستاذنا قول الشاعر:

ملأى السنابل تنحي تواضعا و الفارغات رؤوسهن شوامخ

لقد كان الأستاذ الدكتور سعد الله محبا للقيم الأخلاقية حريصا على بقائها و ما يدل على ذلك هو ما عبر به للدكتور مولود عويمر في كثير من الأحيان عن "شعوره بشيء من الحسرة و الضيق عندما لاحظ تراجع القيم الأخلاقية و انحطاط النظرة إلى العالم الجاد و الباحث المجتهد بعد أن كان محلا للتقدير و الاحترام." (30) و بالفعل لو وقفنا وقفة المتأمل في هذه الجملة البسيطة لوجدناها تحمل أكثر من مدلول، فالمجتمعات التي لا تحترم العلم و العالم مألها إلى الضعف و الانحطاط. و الدول و الحكومات التي لا ترعى مجالس العلم لا خير فيها أبدا.

كما أن من خصال الأستاذ سعد الله حرصه الشديد على إهداء كتبه لمن يتوسم فيهم الجدية و حب المعرفة و الإقبال على المطالعة و البحث، مشجعا بذلك إياهم على هذا الدور النبيل الذي سيحفظ لا محالة للأمة ماء وجهها و يعيد لها إن شاء الله بريقها و نجمها الذي ضاع.

و يذكر الدكتور عويمر أن الأستاذ سعد الله رغم جديته وصرامته إلا أنه كذلك كان يتصف بالطرافة والدعابة، إذ أنه في إحدى مراسلاته بمناسبة عيد الأضحى المبارك أرسل إليه رسالة هذا نصها: كيف حالك ونحن في فاتح مناسك الحج و عيد الأضحى المبارك؟ هل اشتريت كبشك و حددت سكينك؟ إنني أبارك لك العيد المبارك و أتمنى أن تقضيه وسط جو عائلي حميم. ككل عام و أنتم بخير، و السلام." (31)

لا يسعنا في هذه الدراسة المتواضعة أن نلم بجميع خصال الأستاذ أبو القاسم سعد الله، إلا أننا وصلنا إلى حقيقة مفادها أن هذه الشخصية كانت تقطر بالحب و التواضع و الاحترام و التعفف، و العطف من جهة، و بالصرامة و الجدية و رعاية طلبة العلم من جهة أخرى.

3/ أبو القاسم سعد الله الباحث:

بفضل تكوينه المتعدد و علمه الغزير و قلمه السيل، فقد نذر الأستاذ نفسه و حياته لمحاربة أعداء البشرية ألا و هو الجهل، فاتخذ من العلم وسيلة و سلاحا لذلك. و في هذا يقول عنه الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم: " اتخذ العلم بجميع تخصصاته وسيلة لتحقيق الوعي بالذات، و الشعور بالكينونة و رسم الخطط و المناهج بالعقل المستنير المتحرر من الخوف من التاريخ و المتسلح بالعلم و المستهين بشتى أنواع الظلم." (32) و على حد قول الشيخ عبد الحميد بن باديس: فإن الأمم تحيا بشيئين اثنين لا ثالث لهما هما: قوة العلم و قوة الظلم.

كما عُرف الأستاذ بين أقرانه و مجالسيه بثقافته الواسعة و المتنوعة، و في هذا يقول عنه الأستاذ عبد الحميد عبدوس: " و كان الدكتور سعد الله يتميز دائما بثقافته الراقية و المتنوعة و علمه الواسع و خلقه الرفيع. و لم يحدث أن تخلف قط عن مواعده بعد أن يعطي موافقته على الحضور. " (33) و يقول كذلك عنه: " ... يتأكد بأن هذا العالم الأصيل الذي لم يبخل بعلمه و لم يدخر جهده لنشر العلم و المعرفة بين طلبته و عند قرائه ما زال حيًا." (34) و بالفعل فهذا ما يؤكد الشاعر حينما قال يموت الناس و أهل العلم أحياء. و قد أكد هذه الثقافة الواسعة الأستاذ عبد الكريم عوفي عندما يصف الدكتور سعد الله بأنه: " قامة سامقة من قامات العلم، فهو العالم الموسوعي، المؤرخ، و المحقق، و الرحالة، و الأديب، و الصحفي، و المترجم، و المصلح الاجتماعي، و المرابي..." (35)

إن عظمة هذا الباحث و الأكاديمي أهله لأن يكون كالهرم المملوء بالمعرفة و العلم، و هذا ما يؤكدده الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم: " نحن أمام جبل من المعرفة وزنه في ميزان الأعمال هو في ثقله بوزن الوطن، ووجهه المشع لا يمكن قياس إشعاعه إلا بضوء الشمس." (36) و يقول كذلك: لقد اجتمع لأبي القاسم سعد الله ما لم يجتمع لغيره من مقومات المثقف الملتزم بقضايا وطنه، و أمته، و مما أهله لذلك: ذكاء حاد: صنعته هذه البيئة المعطاءة السخية، و حكمة بالغة: نسجتها ثقافة و أصالة هذه المنطقة. و شغف بالبحث العلمي شحذته المكتبات العلمية العالمية. إلى جانب موهبة إنسانية متميزة صقلتها أسرته العائلية الصالحة المصلحة. فكان هذا الفقيه أبو القاسم سعد الله الثابت على الثوابت و الذائد عنها على الدوام، المستقيم على الاستقامة، و القائم على القيم. و ما ظنكم بمعادلة هذه أضلاعها، و ثقافة هذه دعائمها؟" (37) بل هو أكثر من ذلك و أعظم و أبعد على حد وصف الأمانة العامة للجنة الليبية للتربية و الثقافة و العلوم الأستاذة فوزية بريون "فهو عالم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني متجددة. عالم لم تفارقه موهبة العلم، لأنه آمن بأن العلم ليس له ضفاف..." (38) و هذا امتثالا منه لتعاليم الدين الإسلامي الذي حث على طلب العلم في كل مراحل عمر الإنسان من المهد إلى اللحد..

كم عرف الأستاذ بحنكته في الكتابة التاريخية حتى غدا ابن خلدون الجزائر، و في هذا الصدد يقول عنه الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني: " يتبوأ الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله مكانته الخاصة باعتباره مؤرخا أصيلا و كاتباً مبدعا، فله الزاد المعرفي الوفير و الأسلوب اللغوي المعبر السليم البليغ، كما أنه له منهجه المميز و طريقته الخاصة التي يعبر بها عن أفكاره، فضلا عن تفردته عن كثير من المؤرخين الجزائريين بابتعاده عن الأضواء و تحصنه وراء قناعاته الخاصة و رؤيته الذاتية... " (39) و يقول عنه كذلك: " يعتبر من الكتاب الموسوعيين الذين أغنوا المكتبة الجزائرية بإسهام غني و متنوع يتصل بتراث الجزائر و عطائها الفكري و حياتها السياسية و الثقافية. جمع بين التحقيق و الترجمة و التأليف و التعليق... فهو يحاول الالتزام بالموضوعية و الأمانة في تسجيل الحدث أو التعليق عليه، و إن كان في ذلك ينحو منحاً معتدلاً و منهجاً إصلاحياً إن لم يكن تربوياً، و يأخذ بعين الاعتبار المنطقية و العلمية في تقييم الأحداث و إبداء الملاحظات و التعليق، و قلما يفصح عن موقف

محدد أو رأي شخصي حتى لا يؤثر على القارئ وحتى لا يصبح طرفا في القضية التي يعرضها. "(40) و عليه فهو من خلال هذا المنهج القويم يعتبر الدقة و التحري و تقصي الحدث من مستوجبات الباحث و أدوات المؤرخ.

وبهذا فقد خدم الأستاذ سعد الله المجتمع الجزائري و الأمة الإسلامية و الإنسانية بصفة عامة خدمة تاريخية و ثقافية جليلة "و أدبية و لغوية و تربوية و سياسية و اجتماعية و نقدية، خدمة لا نجدها عند غيره من أعلام الفكر الجزائري، قديما و حديثا، فآثاره الخالدة التي تزيد على ثلاثين مجلدا، غير المقالات و الأبحاث المتناثرة في المجلات و الجرائد الوطنية و العربية و الأجنبية شاهدة على سيرته العلمية العطرة..." (41)

و فيما يخص منهج الأستاذ في الترجمة لشخصية ما يقول عنه الأستاذ الدكتور مسعود فلوسي: " للمؤرخ أبو القاسم سعد الله رحمه الله منهجه الخاص في الترجمة للعالم الذي يكتب عنه، فهو يهتم باستقصاء كل ما يمكن الوصول إليه من معلومات متعلقة بالحياة الشخصية للمترجم له، لكنه لا يتوقف عند ذلك بل يتناول بالعرض و التحليل جوانب شخصيته و عوامل تكوينها و ما كان له من مواقف و كيف تفاعل مع ظروف عصره و ما تركه من أثر. "(42)

أما منهجه في إلقاء الدرس و المحاضرات فكان يعتمد على التحوار مع طلبته دافعا لهم للمناقشة، و أن يجعل كل طالب "شاء أم أبي فعلا في كل حصة، و هو يقوم على طرح الإشكالية و إعطاء آرائه و معلوماته حولها، مع السماح للطلبة بالمشاركة، فيحاورهم و يناقشهم، و يحاول إقناعهم بآرائه، و يقتنع بآرائهم إن كانت صائبة، فقد كان يسود الدرس جو من المناقشة العلمية الراقية بينه و بين الطلبة، و هو في كل هذا يحاول أن يخرج ما في فكرهم من عصارة علمية.." (43) و هو بهذا المنهج التعليمي قد سبق غيره في تطبيق منهج المقاربة بالكفاءات المتبع حاليا في مؤسساتنا التعليمية و الجامعية و الذي يعتبر الطالب محور العملية التعليمية و حوله يدور الدرس الذي يكون فيه الأستاذ مجرد موجه و مرافق لا أكثر.

و يذكر الأستاذ محمد سي يوسف من جامعة تيزي وزو أن الدكتور سعد الله كان في غاية البساطة في تقديم المحاضرات، "و كنا نشعر و كأننا في جلسة سمر بين الأصدقاء، لا نشعر بالوقت إلا و قد انتهت المحاضرة." (44)

يُعرف الأستاذ أبو القاسم سعد الله كذلك بأنه واضح أسس وقواعد المدرسة التاريخية الوطنية، وفي هذا يقول الباحث بشير بلاح: "دعا الراحل إلى إنزال الثقافة العربية الإسلامية المنزلة التي تستحقها، باستفراغ الجهد في إحياء تراثها الثقافي الإيجابي، و تنشيط الساحة الثقافية، و صيانة الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري (و الأمة بشكل عام) بملء الفراغ في مجال التاريخ الذي كان حكرا على إنتاج المدرسة الاستعمارية." (45) فعمل الأستاذ سعد الله من هذا المنطلق في تأسيس قاعدتين للمدرسة التاريخية الجزائرية بتتبع تاريخ الجزائر السياسي والعسكري حيث يرى أن الصراع بين الجزائريين والفرنسيين لم يدرس بشكل جيد لنتمكن من استيعاب الدروس والعبر. وأما القاعدة الثانية فقد نشط فيها أيما نشاط وهي دراسة تاريخ الجزائر الثقافي إذ خلف لنا في هذا أعظم موسوعة لتاريخ الجزائر الثقافي. وفي حديث الأستاذ سعد الله شخصيا عن هذه الموسوعة يقول: "كان هدفي من البحث إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور." (46) كما أكد أحد الأساتذة المهتمين بتراث سعد الله بمساهمة هذا الأخير في وضع بؤادر لمدرسة تاريخية جزائرية، بعد عقود من الزمن شوه فيها المستعمر الفرنسي تاريخ الجزائر. فاعتكف، يقول هذا الأستاذ، "و بهمة و عزيمة ناضل سعد الله بقلمه في إحياء تاريخ أمة.."(47)

كما يصفه الأستاذ بلاح بشير على أنه كان "مثقفا أصيلا، أدى دورا ظاهرا في بلورة وإنعاش ورسم توجهات الثقافة الجزائرية المعاصرة، خاصة في قضايا تأصيل التاريخ والتعريب والتربية... كما كان عالما نذر نفسه للحقيقة كما بلغه تخصصه و اجتهاده، رغم أعاصير و مناورات أرباب المصالح الضيقة. مع حرص على صرامة المنهج، واعتدال و حذر في المواقف العامة، و ميل إلى التألف و التوافق." (48) وفي هذا المجال يعود الفضل للأستاذ سعد الله في تحرير الدرس التاريخي من "قبضة المدرسة التاريخية الفرنسية، و تفسيرها المغرض للتاريخ من وجهة نظرها الكولونيالية... و تعصبا الشوفيني المقيت..." (49)

لقد استطاع الأستاذ أبو القاسم سعد الله بفضل تميزه و حرصه على بناء المدرسة التاريخية الجزائرية أن يتحول هو بنفسه إلى مدرسة قائمة بذاتها. و بفضل هذه الجهود طيلة خمس و ستين (65) سنة قضاها متنقلا بين القرطاس و القلم أثمرت

المدرسة التاريخية الجزائرية و آتت أكلها ضعفين بل أضعاف مضاعفة و أبنعت ثمارها في كل جامعات الوطن. فقد خلد الأستاذ أبو القاسم ذكراها بما تركه من رصيد علمي و طلبة أضحوا اليوم أساتذة نذكر منهم: الدكتور محمد الأمين بلغيث، و الدكتور مولود عويمر، و الدكتور إبراهيم لونيس، و غيرهم كثير، فهم نجوم نقندي بهم في الدراسات التاريخية و نهتدي بهم إذا ما ضللنا عن النهج و المنهج.

لقد استطاع الأستاذ أبو القاسم سعد الله بفضل علمه الغزير و ثقافته الواسعة أن يصنع لنفسه طريقا في بحر العلم و العلماء عن طريق فرض آرائه و أفكاره و الدفاع عن مقومات الأمة الجزائرية التي نالتها الكتابات الاستعمارية الحاقدة، بفضل جهوده في إرساء أسس و قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية. و يكفيه في ذلك أنه ترك بصمته العظيمة المتمثلة في تاريخ الجزائر الثقافي الذي أراد من خلاله تتبع مساهمة الجزائر في تاريخ الأمة الإسلامية من جهة، و مساهماتها في تاريخ البشرية من جهة أخرى.

خاتمة:

لقد استطاع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله بعد وفاته بدقائق معدودات أن يدفع بأقلام الباحثين و الدارسين و المؤرخين لأن تفيض مدادا، فراحت تخط الكلمات و الأسطر على الأوراق لتنتج لنا مقالات و دراسات حول هذه الشخصية الفذة التي كتب لها الله و قدرها لأن تكون قامة من قامات الجزائر و صرحا من صروح تاريخه الوطني.

يعتبر الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله من أهم مؤرخي و كتاب عصره من الجزائريين و المسلمين عموما، فقد أسس لنفسه منهجا خاصا و وضع حجر الأساس لبناء المدرسة التاريخية الوطنية المرتكزة على وعي وطني أصيل يساهم في نشر روح المواطنة الكفيلة بتحرير الإنسان الجزائري عموما و المثقف خصوصا من فوبيا التاريخ ليتطلع إلى عملية البناء و الإبداع الحضاري.

لقد استطاعت كتابات و مؤلفات الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله أن تفرض وجودها و مكانتها بين مختلف الكتابات العربية أو الغربية، و أن تصنع لنفسها حيزا مكانيا في المكتبة الجزائرية و العالمية، فنالت بذلك تقدير المعارض قبل احترام المؤيد، و هذا ما يجعلنا نتأكد أن الأستاذ الدكتور سعد الله قد ربح معركته التي خاضها و أثبت بذلك شخصيته العلمية و أكد وجوده كمؤرخ مرموق.

من خلال هذه الدراسة المتواضعة اكتشفنا أن الأستاذ الدكتور سعد الله متعدد الاختصاصات بتعدد المجالات الفكرية والعلمية التي وجد نفسه يكتب و يشارك فيها، و هذا بحكم التخصص الأكاديمي أو بحكم ميوله الأدبية والشعرية أو لاحتامية الدفاع عن قضية من قضايا الوطن أو الأمة الإسلامية، فزاه شاعرا فصيحاً، و أديبا ضليعا، و مؤرخا مدققا و محللا.

لقد استطاع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله أن ينفذ الغبار بمنهجه في التراجم عن كثير من أبناء الجزائر ممن طواهم النسيان من علماء مجهولين، و أن يبرز إسهاماتهم في مختلف العلوم العقلية والنقلية، و أن يبرز مدى تأثيرهم في بلادهم و البلدان التي هاجروا إليها أو انتقلت مؤلفاتهم إليها.

و لأننا في زمن تخصص التخصص فقلما نجد في جامعاتنا أستاذا يجمع في تكوينه بين عدة تخصصات مثل ما هو الحال عند ظاهرة أبو القاسم سعد الله الذي جمع بين التكوين الأدبي والتاريخي والفكري في تخصصه، فاستحق بذلك أن نلقبه بعميد العلم العالمي بالجزائر في عصره على الأقل.

و رغم كل المتاعب والمشاق فقد كان رحمة الله عليه كالنحلة العاملة التي استجابت لوجي رهها فأدت وظيفتها بتفان وإخلاص، فكانت رحلاته و أسفاره بين المصادر والمراجع أشبه بانتقال النحلة بين أنواع الزهور و الورود تجمع الرحيق فتصنع لنا عسلا فيه شفاء للناس، و ينتج لنا بالمقابل الأستاذ علما نافعا ينفع به العقول و الضمائر والأبدان، و يحيي به الأمم والشعوب.

نعم لقد كان الرجل قامة من قامات الجزائر ونخلة سامقة في سماء العلم. فقد أدرك مهمته العالية وعزيمته السامية أنه ليس كل الموت مغيب بل هناك من الموت ما هو إشراق تنبعث منه الألفية. و إن هذه الانبعاث الأبدية لن يتحقق إلا بالعلم، فأهله هم أصحاب بصيرة نافذة ونظرة ثاقبة وهم أجدر الناس وأحقهم بالذكر والتخليد، و على حد قول الشاعر:

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
و الجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
على الهدى لمن استهدى أدلاء
الناس موتى وأهل العلم أحياء

و في الأخير لا يسعني إلا أن ننتع الرجل بأنه كان يمثل ذاكرة جيل بأكمله لطالما حلم و ناشد أن يحقق النهضة العلمية و الثقافية التي تكفل لهذا الوطن عزته و كرامته. وهكذا احتسب كل عمل قام به من أجل بناء مدرسة تاريخية وطنية تساهم في تحقيق النهضة الثقافية و تقاوم المدرسة الاستعمارية بهدف تحقيق التحرر الثقافي و الفكري المنشود.

المصادر والمراجع

- 1- البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أسست بتاريخ أول شوال 1354 هـ الموافق لـ 27 ديسمبر 1935 م، حاليا هي جريدة أسبوعية تصدر بالنسخة الورقية و النسخة الالكترونية بموقع www.albassair.org;
- 2- الشروق أون لاين جريدة الكترونية تصدر بالموقع التالي: www.echoroukonline.com;
- 3- تقع في الجانب الغربي من مدينة قمار بجوالي 4 كلم، و هو مكان غارق في الرمال بين كثبان مرتفعة، أنظر: محمد العربي، معريش، في جنازة الدكتور سعد الله شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./02/15
- 4- يذكر الأستاذ بشير بلاح أن مولده كان في الفاتح جويلية 1930 م، أنظر: بشير، بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1989/1830، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 547 صفحة، ص. 434
- 5- مصطفى، عبيد، أستاذي الدكتور أبو القاسم سعد الله، البصائر، العدد 686، الاثنين 10-04 ربيع الأول 1435 هـ/ 12-06 2014، ص. 16
- 6- نفسه، الصفحة نفسها.
- 7- نفسه، الصفحة نفسها.
- 8- سفيان لوصيف، المؤرخ أبو القاسم سعد الله و كتابة تاريخ الجزائر، مجلة دراسات و أبحاث، العدد 28 سبتمبر 2017، جامعة سطيف، الجزائر، ص 263.
- 9- محمد بليل، الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية و الحقيقة التاريخية، مجلة عصور الجديدة، العدد 13 أبريل 2014، جامعة وهران، الجزائر، ص. 283
- 10- مصطفى، عبيد، أستاذي الدكتور أبو القاسم سعد الله، البصائر، العدد 686، المرجع السابق، ص 16.
- 11- سفيان لوصيف، المؤرخ أبو القاسم سعد الله و كتابة تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص. 266
- 12- محمد، بن عقيلة، صديقي الأستاذ أبو القاسم سعد الله، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-22 صفر 1435 هـ/ 23-29 ديسمبر 2013، ص. 16
- 13- [http:// ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3)

- 14- عبد الرزاق، قسوم، وداعا يا آخر الأصفياء، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-26 صفر 1435 هـ/ 29-23 ديسمبر 2013، ص 2.
- 15- أرزقي، فراد، المؤرخ أبو القاسم سعد الله: طلق الراحة من أجل الوطن، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/22
- 16- التهامي، مجوري، الدكتور سعد الله: علامة الجزائر و علامتها، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/22
- 17- التهامي، مجوري، سعد الله و نكبة ثقافة، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-26 صفر 1435 هـ/ 29-23 ديسمبر 2013، ص 6.
- 18- عبد الله، عثمانية، الدكتور أبو القاسم سعد الله يوارى الثرى في مسقط رأسه قمار، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-26 صفر 1435 هـ/ 29-23 ديسمبر 2013، ص 10.
- 19- ناصر الدين، سعيدوني، كلمة عرفان و تقدير عن فقيه الجزائر الدكتور أبي القاسم سعد الله، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-26 صفر 1435 هـ/ 29-23 ديسمبر 2013، ص 11.
- 20- نفسه، الصفحة نفسها.
- 21- www.thakafamag.com/articl4277: 19/12/2013 à 16:24.
- 22- لحسن، بن علجية، أبو القاسم سعد الله... علو في الحياة و في الممات، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2013/12/29.
- 23- أرزقي، فراد، المرجع السابق، الشروق أون لاين، 2014./01/22
- 24- محمد الأمين، بلغيث، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/13
- 25- التهامي، مجوري، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 6.
- 26- محمد، سريج، أبو القاسم سعد الله... الأديب الشاعر، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2013./12/29
- 27- مولود، عويمر، ذكرياتي عن أستاذي العطوف أبي القاسم سعد الله، البصائر، العدد 684، الاثنين 20-26 صفر 1435 هـ/ 29-23 ديسمبر 2013، ص 16.
- 28- نفسه، الصفحة نفسها.
- 29- أمينة، صاري، شهادة من الجيل الأخير من الطلبة في حق الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/04
- 30- مولود، عويمر، ذكرياتي عن أستاذي العطوف أبي القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 16.
- 31- الرسالة مؤرخة بيوم 2010/11/15، نفسه، الصفحة نفسها.
- 32- عبد الرزاق، قسوم، المرجع السابق، ص 2.

- 33- عبد الحميد، عبدوس، رحيل الرجل الذي تطيب بعد الموت أخباره، البصائر، العدد 684، الاثنيين 26-20 صفر 1435 هـ/ 23-29 ديسمبر 2013، ص 3.
- 34- نفسه، الصفحة نفسها.
- 35- عبد الكريم، عوفي، هيرودوت الجزائر يرحل و تبقى موسوعاته التاريخية و الثقافية تنتظر الباحثين، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/19
- 36- عبد الرزاق، قسوم، تأبينية، البصائر، العدد 684، الاثنيين 26-20 صفر 1435 هـ/ 23-29 ديسمبر 2013، ص 10.
- 37- نفسه، الصفحة نفسها.
- 38- فوزية، برون، من أجل أعمال الفكر وإحكام النظر ونشر المعرفة فحسب، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2014./01/14
- 39- ناصر الدين، سعيدوني، المرجع السابق، ص 11.
- 40- نفسه، الصفحة نفسها.
- 41- عبد الكريم، عوفي، المرجع السابق، الشروق أون لاين، 2014./01/19
- 42- مسعود، فلوسي، جهود المؤرخ سعد الله في التعريف بعلماء الجزائر، البصائر، العدد 684، الاثنيين 26-20 صفر 1435 هـ/ 23-29 ديسمبر 2013، ص 12.
- 43- أمينة، صاري، المرجع السابق، الشروق أون لاين، 2014./01/04
- 44- محمد، سي يوسف، العلامة أبو القاسم سعد اللع كما عرفته، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين، 2013./12/28
- 45- بشير، بلح، هموم و مساهمات ثقافية في مسار الدكتور أبي القاسم سعد الله، البصائر، العدد 684، الاثنيين 26-20 صفر 1435 هـ/ 23-29 ديسمبر 2013، ص 14.
- 46- نفسه، الصفحة نفسها.
- 47- /- سفيان لوصيف، المؤرخ أبو القاسم سعد الله و كتابة تاريخ الجزائر، مجلة دراسات و أبحاث، العدد 28 سبتمبر 2017، جامعة سطيف، الجزائر، ص 270.
- 48- بشير، بلح، هموم و مساهمات ثقافية في مسار الدكتور أبي القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 14.
- 49- أحمد، بن السائح، المجاهد أبو القاسم سعد الله... فارس العلم و القلم، شهادات حول الراحل أبو القاسم سعد الله، الشروق أون لاين،